تفسير سورة التحريم

للأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

« وأسرار التنزيل ورموزه ، فى كل باب : بالغة من اللطف والخفاء حدا يدق عن تفطن العالم ، ويند عن تبصره ، الكشاف .

« يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم ، إنما تجزون ما كنتم تعملون ،

تتابع هذه الآية الآية التى سبقتها فى الحديث عن المسئولية ، وإذا كانت الآية السابقة فيها عموم ، من حيث إنها تشمل جميع أنواع المعاصى ماعدا الكفر ؛ وإذا كان الله تعالى يخاطب فيها المؤمنين بـ : « يا أيها الذين آمنوا » ، فإن هذه الآية التى نحن بصددها الآن ، زجر عنيف عن الكفر .

ويكاد الإنسان - لأول وهله - يعتقد أنها خاصة بالكفر الذى هو ضد الإيمان وحده .

والكفر كما هو معروف ، ضد الإيمان ، ولكنه أيضا جحود النعمة ، وبذلك يكون ضد الشكر .

وجحود النعمة ، فى أقوى مظاهره ، كفران المنعم وعدم الإيمان به ، ولكنه فى مظاهره ، الخفيفة الهينة ، يتمثل فى كثير من المؤمنين أيضا .

فهذا الذى يبدو باستمرار متأففا من الفقر ، لا يذكر إلا هذا ، ويستر ما منحه الله من نعمة الصحة ومن نعمة الأولاد ، أو من نعمة الزوجة الحسنة الأخلاق ، هذا الرجل كافر ، بمعنى :

أنه جاحد لما أسبغه الله عليه من كثير من النعم ، غير شاكر له ، غير ذاكر إلا لما يراه نقمة ،

وقد يكون فى الواقع فقره هذا لحكمة تعلو على فهمه .

« . . . إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى »

والغنى القوى صاحب الجاه ، الذى لا أولاد له ، والذى لا يذكر إلا أنه : لا أولاد له ، ناسيا نعم الله الأخرى عليه ، كافر .

وهكذا كل من يذكر ما يراه ويعتقد أنه نقمة ، وينسى غيره من النعم ، كافر ، بمعنى : جاحد بنعم الله عليه .

ونوع آخر من الكفر ، هو ضد الشكر . يتمثل فى هذا الرجل الغنى الذى بسط الله له فى الرزق وهيأ له أسباب الثراء العريض ، فلما أتته الدنيا خاضعة طائعة ، استعملها فيما لا يرضى الله !! فانغمس فى الملذات المحرمة ، وأتى الموبقات ومنع الزكاة ، ونام متخما . وترك جاره فى مخمصة !! . . هذا الرجل كافر بنعمة الله .

وذلك الذى أتاه الله الصحة والعافية والقوة ، فاستعملها فى طريق منحرف ، كافر أيضا .

والكفر الذى هو ضد الإيمان لا يدخل فى دائرته المسلمون ، ولكن الكفر الذى بمعنى جحود النعمة يتمثل فى المسلمين الذين كفروا نعم الله ، كما يتمثل فى غيرهم .

وإنه لمن البين أن كثيرا من المسلمين الآن ، كافر بالمعنى الثانى ، ولا نريد أن نكثر الحديث فى ذلك فالمسألة أظهر من أن يستفاض فى الحديث عنها ، ويكفى أن ينظر كل إنسان إلى نفسه ، وإلى من حوله ، ليرى الكفر ضاربا بجرانه فى كل مكان :

سيقال للكفار - على أى وضع كانوا ، إذن ، يوم القيامة ، حينما يوجهون إلى جهنم : « لا تعتذروا اليوم » ، جهنم ، والعذاب الذى ستجدونه فيها ألوانا ، إنما هو جزاء عادل ، ونتيجة طبيعية لما كنتم تعملون فى الدنيا من شرور وآثام :

قلنا فيما سبق : إن الإنسان يكاد لأول وهلة ، يعتقد أن هذه الآية خاصة بالكفر الذى هو ضد الإيمان ، ومع ذلك فإنه إذا أنعم النظر فيها يجد أنها فى عموم أنواع الكفر ؛ ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول : « إنما تجزون ما كنتم تعملون »

هى ، إذن ، تشمل الناحية المتصلة بالقلب : ، الإلحاد ، وتشمل جحود النعمة ، وتشمل استعمال النعمة فيما لا يرضى الله ، وهى على هذا الوضع موجهة إلى الناس جميعا .

على أن القرآن الكريم يطلق على الكفر بالمعنى الثانى ، أنه تكذيب بالدين ، يقول الله تعالى :

« أرأيت الذى يكذب بالدين ؟ فذلك الذى يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين ! »

وبحسب التوجيه القرآنى ، إذن ، لا يخرج الإنسان من دائرة الكفر بمعناه العام ، إلا إذا تمثل فيه أمران :

١ — الاعتقاد القلبى بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر :

٢ — شكر نعمة الله تعالى ، سواء كانت ثراء ، أو أولادا نجباء أو صحة وعافية ، أو غير ذلك .

وتوجيه هذه الأمور واستعمالها فيما يرضى الله : هو الشكر .

وبالله التوفيق ؟

عبد الحليم محمود

* * *